كلام في الشعر وماهيته

د. محمد إحسان النص[*]

لقد طُرح هذا السؤال عشرات المرّات منذ القديم: ما سبب انقسام الفن القولي، لدى جميع الأمم، إلى نثر وشعر؟ ما ماهية الشعر التي تميّزه من الكلام المعتاد ومن النثر الفني؟ إن أكثر ما نجده من الحديث عن الشعر إنما يتّصل بأثره في النفس وجماليته وصعوبة قوله ومنزلة الشاعر في مجتمعه. أما بيان ماهية الشعر فقلما يعرض لها النُقّاد والأدباء.

من المحقَّق أنه كانت للشاعر في المجتمع الجاهلي منزلة مميّزة لأنه كان المحامي عن القبيلة، يهجو أعداءها، ويفخر بمآثرها، ويمدح أشرافها ولكننا لا نجد في الشعر الجاهلي بيانًا لماهية الشعر، وإنما نجد كلامًا حول صعوبة قوله. يقول الحطيئة:

الشعر صعبٌ وطويل سُلّمُه   والشعر لا يطيقه من يظلمُهْ
إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه   زلّت به إلى الحضيض قدمُه
يريد أن يُعرِبَهُ فيُعجِمه[1]

وقالوا في صعوبة قول الشعر: «عمل الشعر على الحاذق به أشدّ من نقل الصخر. ويُقال إن الشعر كالبحر، أهون ما يكون على الجاهل، أهول ما يكون على العالم»[2].

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(١) العمدة لابن رشيق ٩٦/١.

(٢) نفسه ٩٧/١.

وكان للشعر أثره القوي في نفوس الجاهليين بحيث أن بيتًا من الشعر في المديح يرفع من شأن الممدوح إلى منزلة عالية، وبيتًا في الهجاء ينحطّ به المهجوّ إلى أدنى منزلة... من أمثلة ذلك حديث الأعشى والمحلّق الكلابي. ذكروا أن الأعشى قدم مكة وتسامع الناس به، فقالت امرأة المحلّق لزوجها، وكانت امرأة عاقلة: إن الأعشى قدم، وهو رجل مفوّه مجدود في الشعر، ما مدح أحدًا إلاّ رفعه، ولا هجا أحدًا إلاّ وَضَعه، وأنت رجل، كما علمت، فقير خامل الذكر ذو بنات، وعندنا لقحة نعيش بها، فلو سبقت الناس إليه، فدعوته إلى الضيافة، ونحرت له، واحتلت لك فيما تشتري به شرابًا يتعاطاه، لرجوت حسن العاقبة. فسبق إليه المحلّق، فأنزله ونحر له، ووجد المرأة قد خبزت خبزًا، وأخرجت نِحْيًا فيه سمن، وجاءت بوَطْبِ لبن. فلمّا أكل الأعشى وأصحابه، وكان في عصابة قيسية، قَدّم إليه الشراب، واشتوى له من كبد الناقة، وأطعمه من أطايبها. فلمّا جرى الشراب في الأعشى، وأخذت منه الكأس، سأله عن حاله وعياله، فعرف البؤس في كلامه، وذكر البنات. فقال الأعشى: كُفيتَ أمرهنّ. ووقف بعكاظ فأنشد قصيدة قال فيها:

نفى الذمَّ عن المحلّق جفنةً ... كجابية الشيخ العراقي تفهق

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة ... إلى ضوء نار باليفاع تحرّق

تُشَبّ لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار النّدى والمحلّق

إلى آخر القصيدة.

فما أتمّها إلا والناس ينسلّون إلى المحلّق يهنئونه، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون جريًا يخطبون بناته، فلم تمسِ منهنّ واحدة إلا في عصمة

رجل أفضل من أبيها[٣].

وممن رفعه الشعر بنو أنف الناقة، في زمن عمر بن الخطاب ﷺ. كانوا يعيَّرون بهذ اللقب ويتحامون ذكره إذا سُئلوا عن نسبهم. فلما قال الحطيئة قصيدته في مدحهم ومنها قوله:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومَن يسوّي بأنف الناقة الذنبا

صاروا يفخرون بهذا اللقب ويتطاولون به.

وممن وضعه الشعر الربيع بن زياد العبسي، وكان نديمًا للنعمان بن المنذر، فلما هجاه لبيد بن ربيعة العامري، وهو يومئذ غلام، بالرجز الذي يقول فيه:

مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معه

وأفحش فيه، سقطت منزلته عند النعمان.

* * *

فلما جاء الإسلام ظلت للشعر مكانته في النفوس وأثره القوي فيها، مع أن القرآن وقف من الشعراء وقفة المنكر الذامّ لهم في قوله تعالى: ﴿والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ. وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾[٤]. على أنه أثنى بعد ذلك على المؤمنين منهم في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾[٥]. فالشعراء الذين ذمّهم القرآن الكريم إنما هم الشعراء الذين يتعرَّضون لهجاء الناس ويظلمونهم، وفي القرآن آية تنفي أن يكون محمد ﷺ،

(٣) العمدة ١/٣٥.

(٤) سورة الشعراء الآيات ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦.

(٥) سورة الشعراء الآية ٢٢٧.

عالمًا بالشعر وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾[٦]. فالقصد من الآية أن الرسول ﷺ إنما بُعث لهداية الناس بآيات القرآن، ولم يبعثه ليقول الشعر. وروي عن النبي ﷺ، حديث يذم فيه الشعر وهو قوله: «لأَن يمتلئ جوفُ أحدكم قَيحًا فيَرِيه خير له من أن يمتلئ شعرًا»[٧].

وقد وضّح ابن رشيق المقصود منه فقال:«فإنما هو من غلب الشعر على قلبه وملك نفسه حتى شغله عن دينه وإقامة فروضه، ومنعه من ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن»[٧].

وقد روي عن الرسول، عليه الصلاة والسلام، كلام في الثناء على الشعر منه قوله:

«إن من البيان لسِحرًا، وإن من الشعر لحكمة»[٨]. وأُثِرَ عنه أيضًا قوله في الثناء على الشعر:«الشعر كلام من كلام العرب جزل، تتكلم به في بواديها، وتُسَلّ به الضغائن من بينها»[٨].

ولما نزل القرآن وأُخذ المشركون ببلاغته حاروا في إطلاق نعت لمحمد، عليه الصلاة والسلام، وكان مما نعتوه به أنه شاعر، وذلك لعميق أثره في النفوس، وقد ذكر القرآن أقوالهم وردّ نعتهم لمحمد بأنه شاعر في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ﴾[٩]، فالشاعر في نظر الجاهليين ليس فقط من يقول الشعر الموزون، وإنما من يقول كلامًا بليغًا رائعًا

(٦) سورة يس، الآية ٦٩.

(٧) العمدة ١/١٨.

(٨) نفسه١/١٤.

(٩) الحاقة: ٤٠– ٤١.

عميق الأثر في النفوس.

وكان الرسول ﷺ يستعين بالشعراء على مهاجاة المشركين وشعرائهم، ومن هؤلاء حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، فكان يحارب المشركين بسلاحهم، إذ كان شعراؤهم يهجون الرسول والمسلمين، ومنهم عبد الله بن الزبعرى.فظهور الإسلام لم يؤدِّ إلى انحطاط منزلة الشعر.

ورُوي عن أصحاب رسول الله ﷺ وخلفائه كلام كثير في شأن الشعر. ولعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أقوال في الشعر منها قوله:((الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه))[١٠]. وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري:((مُر مَن قِبلك بتعلم الشعر، فإنه يدل على معالي الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب))[١١].

وكان ابن عباس ﷺ يقول:((إذا قرأتم شيئًا من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب))[١٢]. ومن كلام معاوية في الشعر قوله:((يجب على الرجل تأديب ولده، والشعر أعلى مراتب الأدب)) وقال أيضًا:((واجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم)).

وثمة أقوال كثيرة في بيان منزلة الشعر، ولكن ليس فيها ذكر لتعريف الشعر وبيان ماهيته. وأول كلام في تعريف الشعر نجده عند ابن سيرين وهو

(١٠) العمدة ١/١٤.

(١١) نفسه ١/١٧.

(١٢) نفسه ١/١٥.

قوله:«الشعر كلام عُقد بالقوافي»[١٣]. ولكن هذا التعريف غير واف، فهو يجعل الفارق بين الشعر والنثر ارتباط الشعر بالقافية.

لأبي العباس ثعلب أحمد بن يحيى (ت٢٩١هـ)كتابان في الشعر أحدهما (قواعد الشعر) وهو مطبوع، والثاني (معاني الشعر). ولم يكن ثعلب من نُقَّاد الشعر وإنما كان نحويًّا لغويًّا، ولذلك لم يأت في كتابه (قواعد الشعر)بتعريف للشعر وإنما ذكر قواعده، وهي عنده:الأمر والنهي والخبر والاستخبار.وتحدَّث عن المعنى وما يحسن منه،وحديثه في غاية الإيجاز[١٤].

أول أديب ناقد تحدث عن الشعر والشعراء هو الجاحظ عمرو بن بحر(ت ٢٥٥هـ) في كتابه (البيان والتبيين)، ففي حديثه عن الشعراء ذكر منهم المطبوعين على الشعر من المولّدين كبشار بن برد والسيّد الحميري[١٥]، وكذلك تحدَّث عن صفات الشعر الجيد فقال:«وأجود الشعر ما رأيتَه متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتَعلم بذلك أنه قد أُفرغ فراغًا واحدًا، وسُبك سبكًا واحدًا»[١٦]. وتحدَّث عن أوقات الشعر، فقد يستعصي قوله على الفحول منهم، وأورد قول الفرزدق: «أنا عند الناس أشعر العرب، ولربما كان نزع ضرس أيسر عليّ من أن أقول بيت شعر»[١٧]. وتحدَّث عن الشعراء الذين ينقّحون أشعارهم فقال: ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً

(١٣) العمدة ١/١٦.

(١٤) انظر كتاب تاريخ النقد الأدبي عند العرب للدكتور إحسان عباس (ص٨٤).

(١٥) البيان والتبيين ١/٥٠.

(١٦) نفسه ١/١٦٧.

(١٧) نفسه ١/١٣٠.

كريتًا وزمنًا طويلاً، يُردّد فيها نظره ويجيل فيها عقله، ويقلّب فيها رأيه اتّهامًا لعقله، وتتبعًا على نفسه، فيجعل عقله زمامًا على رأيه، ورأيه عيارًا على شعره... وكانوا يسمّون القصائد الحوليّات والمقلّدات، والمنقّحات ليصير قائلها فحلاً خنذيذًا أو شاعرًا مفلقًا[١٨]. وذكر أيضًا أنه ليس كل بليغ يستطيع قول الشعر[١٩]. وهذه إشارة هامة في بيان الفارق بين الأديب والشاعر، وعلل ذلك باختلاف طبع الرجل وطبيعته، قال:«ويكون له طبع في تأليف الرسائل والخطب والأسجاع، ولا يكون له طبع في قرض بيت شعر». وتلك أيضًا إشارة هامة إلى ماهية الشعر، فهو طبعٌ في الشاعر، وليس كل أديب وُهب هذا الطبع. على أن الجاحظ لم يضع تعريفًا للشعر يبين ماهيته ومقوّماته.

أما محمد بن سلاّم الجمحي (ت ٢٣١هـ) فقد ذهب إلى أن الشعر صناعة يعرفها أهل العلم، قال: «وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات، منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان»[٢٠]. وقال في بيان منزلة الشعر في الجاهلية: «كان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم، ومنتهى حكمهم، به يأخذون، وإليه يصيرون»[٢١].

ومن أوائل من تحدَّثوا عن الشعر والشعراء ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ). فقد تحدَّث في كتابه (الشعر والشعراء) عن أمور كثيرة تتصل

---

(١٨) البيان والتبيين ٢/٩.

(١٩) نفسه ١/٢٠٨.

(٢٠) طبقات فحول الشعراء ١/٦.

(٢١) نفسه ص٢٢.

بالشعر، ولكنه لم يعرّف الشعر وإنما ذكر أن من الشعراء المتكلّف والمطبوع(٢٢)، وتحدَّث عن دواعي الشعر وأوقاته، من ذلك قوله: «وللشعر تارات يبعد فيها قريبه، ويستصعب فيها ريِّضُه»(٢٣). وعلّل ذلك بحصول عارض يعرض على الغريزة، من سوء غذاء أو خاطر غم.

يبدو أن أول ناقد وضع حدًّا للشعر هو الناشئ الأكبر، عبد الله بن محمد الأنباري (ت ٢٩٣هـ) . ولم يصلنا كتابه في نقد الشعر وإنما وصلتنا نُقُولٌ منه في كتاب (البصائر والذخائر) لأبي حيان التوحيدي، فهو يقول فيه: «ما أصبت أحدًا تكلَّم في نقد الشعر وتوصيفه أحسن مما أتى به الناشئ المتكلم، وإن كلامه ليزيد على كلام قدامة وغيره»(٢٤). وقد عرّف الناشئ الشعر تعريفًا أدبيًّا فقال: «الشعر قيد الكلام، وعقال الأدب، وسور البلاغة، ومحلّ البراعة، ومجال الجَنان، وسرحه البيان، وذريعة المتوسل، ووسيلة المترسّل، وذمام العرب، وحرمة الأديب، وعصمة الهارب، وعذر الراهب، وفرصة المتمثّل، وحاكم الإعراب، وشاهد الصواب»(٢٥). إلا أن هذا التعريف ليس حدًّا للشعر، وإنما هو وصف لمنزلته وأثره في النفوس.

وممن وضع تعريفًا للشعر ابن طباطبا محمد بن أحمد (ت ٣٢٢هـ) في كتاب (عيار الشعر)، قال: «الشعر كلام منظوم، بائن عن المنثور... ونظمه معلوم محدود، فمن صحّ طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر

(٢٢) الشعر والشعراء ٧٧/١.

(٢٣) نفسه ٨٠/١.

(٢٤) البصائر والذخائر ١١٧/٢.

(٢٥) نفسه ٥٧٣/٢.

بالعروض التي هي ميزانه»[٢٦]، فابن طباطبا يجعل الشعر وليد الطبع والذوق. ثم يتحدث عن صناعة الشعر، فيقول:«فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مَخَضَ المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرًا، وأعدّ له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول عليه»[٢٧]. فالشعر عند ابن طبابا طبع وصنعة، وهو يجعل المعنى أصلاً لهذه الصنعة. فالشاعر يبحث أولاً عن المعنى، ثم يختار لقصيدته الألفاظ والقوافي والوزن. وله كلام في عمل الشعر وإجادته ومكانته وأثره في النفوس يقول: «الشعر تُدفع به العظائم، وتُسَلّ به السخائم، وتُخلب به العقول، وتُسحر به الألباب، لما يشتمل عليه من رقيق اللفظ، ولطيف المعنى»[٢٨].

على أن أول من وضع حدًّا منطقيًّا للشعر إنما هو الناقد أبو الفرج قدامة بن جعفر، وكان معاصرًا لابن طباطبا (ت ٣٣٧هـ). فقد عرَّف الشعر في كتابه (نقد الشعر) بقوله: «إن أول ما يُحتاج إليه في شرح هذا الأمر معرفة حدّ الشعر الجائز عما ليس بشعر، وليس يوجد في العبارة عن ذلك أبلغ ولا أوجز، مع تمام الدلالة، من أن يُقال فيه: إنه قول موزون مقفّى يدلّ على معنى»[٢٩]. فحدّ الشعر عند قدامة هو أنه كلام موزون مقفّى يدل على معنى. فالعناصر التي يقوم عليها الشعر هي الوزن والقافية والمعنى. وبهذا التعريف يدخل في الشعر كل كلام منظوم كألفيَّة ابن مالك مثلاً، وهذا التعريف

---

(٢٦) عيار الشعر ص٣.

(٢٧) نفسه ص٥.

(٢٨) نفسه ص١٢١، والبصائر والذخائر للتوحيدي ١١٦/٢.

(٢٩) نقد الشعر ص١٣.

المنطقي لا يلمّ بجميع عناصر الشعر.

وممن تعرَّض للشعر بعد هؤلاء العالم اللغوي أحمد بن محمد المرزوقي (ت ٤٢١هـ) في مقدمته لشرح حماسة أبي تمام، وهو أول من وضع حدًّا واضحًا لعمود الشعر، وقد لخصه بقوله: «إنهم – أي الشعراء العرب – كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف... والمقارنة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها، على تخيّر من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى، وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما. فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر»[٣٠].

وفي سياق حديثه عن النثر والشعر يُورد حدّ الشعر بقوله: «ثم تفرد عنه – أي عن النثر – بأن كان حدَّه لفظ موزون مقفّى يدل على معنى»[٣١]. ومن الواضح أن حدّ الشعر عنده هو الذي وجدناه عند قدامة بن جعفر في كتابه (نقد الشعر)، فعناصر الشعر ثلاثة وهي: الوزن والقافية والمعنى. فلم يأت المرزوقي بتعريف للشعر يغاير تعريف قدامة، ولم يكن همّ المرزوقي منصرفًا إلى تعريف الشعر، وإنما كان معنيًّا ببيان عمود الشعر وبيان الفوارق بين النثر والشعر، وإيراد الأدلة على أن النثر أفضل من الشعر.

ثمة شاعر كان له تصور للشعر يخالف به تصور شعراء آخرين، ذاك هو البحتري أبو عبادة الوليد بن عبيد (ت٢٨٤هـ). فهو يرفض إقحام المنطق في

---

(٣٠) مقدمة المرزوقي ص ٨٨.

(٣١) نفسه ص ٨٧.

الشعر، صنيع أبي تمام مثلاً، يقول:

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغني عن صدقه كذبُه

ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنـ ـطق مانوعه وما سببه

والشعر لمح تكفي إشارته وليس بالهذر طُوّلت خطبه

فالشعر عنده يقوم على الإيجاز والإشارة لا على التطويل والمنطق، وفي الشعر يُقبل الكذب من الشاعر، والمقصود بالكذب هنا الخيال والتصوير.

ومن النقَّاد الذين تحدثوا عن الشعر القاضي الجرجاني علي بن عبد العزيز (ت ٣٦٦هـ) في كتابه (الوساطة بين المتنبي وخصومه). وقد عرّف الشعر بقوله: «الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء. ثم تكون الدربة مادة له، وقوةً لكل واحد من أسبابه»[٣٢]. فعناصر الشعر عنده هي الطبع، والرواية، والذكاء، والدربة. فجعل الشعر علمًا من علوم العرب قوامه **الطبع**.

وفي القرن الخامس ألّف ابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ) كتابه (العمدة في محاسن الشعر)، وفيه باب عنوانه (باب حدّ الشعر وبنيته) وقد عرّف الشعر بقوله: «الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء وهي: اللفظ، والوزن، والمعنى، والقافية، فهذا هو حدّ الشعر[٣٣]، ثم يزيد الكلام إيضاحًا فيقول: «لأن من الكلام موزونًا مقفّى، وليس بشعر لعدم القصد والنيّة». فقد أضاف ابن رشيق

(٣٢) الوساطة ص١٥.

(٣٣) العمدة١/٩٩ .

إلى تعريف قدامة القصدَ والنيّة. وأورد بعض ما قيل في بنية الشعر ومنها قول بعضهم: «بُني الشعر على أربعة أركان وهي: المدح، والهجاء، والنسيب، والرثاء. فخلط بعض الباحثين بين ماهية الشعر وأغراضه. ثم تحدّث ابن رشيق عن بيت الشعر فقال: «البيت من الشعر كالبيت من الأبنية: قراره الطبع، وسَمْكُه الرواية، ودعائمه العلم، وبابه الدُّربة، وساكنه المعنى. ولا خير في بيت غير مسكون. وصارت الأعاريض والقوافي كالموازين والأمثلة للأبنية، أو كالأواخي والأوتاد للأخبية. فأما ما سوى ذلك من محاسن الشعر فإنما هو زينة مستأنفة، ولو لم تكن لاستُغني عنها. ثم أورد كلام القاضي الجرجاني في تعريف الشعر بقوله: الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الدربة مادة له، وقوة لكل واحد من أسبابه»[٣٤]. ثم أورد ابن رشيق أقوالاً في أركان الشعر وأغراضه. فكذلك نرى أن ابن رشيق لم يأت بجديد ذي شأن في تعريف ماهية الشعر.

ظهر في القرن السابع الهجري ناقد بلاغي نافذ النظرة هو أبو الحسن حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ)، ألّف كتابًا في البلاغة والأدب والحكمة سماه (منهاج البلغاء وسراج الأدباء)، وكان ممن تأثروا بفلسفة أرسطو ونظرات الفلاسفة العرب. وقد وقف في كتابه بابًا للشعر عنوانه: «معرف دال على المعرفة بماهية الشعر وحقيقته» يقول فيه: «الشعر كلام موزون مقفى من شأنه

---

(٣٤) العمدة ص١٠١.

أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكرّه إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمن من حسن تخييل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيئة تأليفه الكلام، وقوة صدقه، أو قوة شهرته، أو بمجموع ذلك»[٣٥]. فحازمٌ يعرِّف الشعر تعريف قدامة بن جعفر، ولكنه يضيف إليه ما يحققه الشعر من تأثير في النفس، ويجعل عماده التخييل والمحاكاة، وهو يوضِّح هذا التعريف بالحديث عن المحاكاة والصدق والكذب في الشعر.

ومن المؤرخين القدامى الذين تحدثوا عن الشعر الفيلسوف الاجتماعي عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ). فقد أفرد في مقدمته فصلاً للشعر عنوانه (في صناعة الشعر ووجه تعلمها) وقد عرَّف فيه الشعر بقوله: «الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصّل بأجزاء متفقة في الوزن والرويّ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به»[٣٦]. ثم شرح كل عنصر من هذه العناصر، فهذه (حقيقة الشعر) عنده، فالشعر في رأيه **صناعة** لها شروط، يقول: «إن لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطًا أولها: الحفظ من جنسه – أي من حشو شعر العرب – حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على

(٣٥) منهاج الأدباء ص٧١.

(٣٦) مقدمة ابن خلدون ص٥٧٣.

منوالها»[٣٧]. فمملكة الشعر عنده إنما تُكتسب بحفظ أشعار العرب، وصناعة الشعر تقوم على جملة من الشروط. فقد عرّف ابن خلدون الشعر بمضمونه وعماده وصنعته ولم يعرّف ماهية الشعر.

ظهرت في العصر الحديث والمعاصر دراسات تدعو إلى التخلّي عن **الشعر الخليلي** وإلى قول الشعر وفق نظرة جديدة. ومن أوائل من دعوا إلى ذلك الشاعرة المبدعة نازك الملائكة في كتابها (قضايا الشعر المعاصر). فقد اهتدت إلى ضرب من الشعر دعته (الشعر الحر). وهو يختلف عن الشعر الخليلي في أنه يقوم على الشطر الواحد لا على الشطرين، وأنه ينظم على تفعيلات متساوية من تفعيلات الشعر الخليلي، ولا يلتزم قافية واحدة في القصيدة. وقد عُرف هذا الشعر **بشعر التفعيلة**، وتساوي التفعيلات يقع في طائفة من البحور الخليلية كالخبب والكامل والرمل والمتقارب.

وقد شاع قول الشعر على نهج التفعيلة في الأقطار العربية حقبة من الزمن. وما لبث هذا النهج أن خُولف فيما أُطلق عليه (قصيدة النثر). وقد ظهر هذا الضرب الجديد من الشعر أولاً في لبنان، في رحاب مجلة (شعر). وما لبث أن شاع في جميع الأقطار العربية.

ما تعريف الشعر عند نازك الملائكة؟ لقد تحدثت في كتابها (قضايا الشعر المعاصر) عن عناصر الشعر، وهي عندها أربعة: الموضوع، والهيكل، والتفاصيل (الأساليب)، والوزن[٣٨].

---

(٣٧) نفسه ص٥٧٤.

(٣٨) قضايا الشعر المعاصر ص٢٠٢.

وقد عرّف نُقاد معاصرون آخرون الشعر وماهيته، منهم نزار القباني في الكتيب الذي يحمل عنوان (ما هو الشعر)، وقد تحدَّث نزار في كتابه هذا عن كل شيء باستثناء ماهية الشعر، فقد قدَّم تعريفات وصفية عاطفية للشعر، ولم يقدِّم له تعريفًا معياريًّا، فمن أقواله مثلاً في تعريف الشعر:

«١-الشعر هو هذه اللغة ذات التوتر العالي، التي تلغي كل لغة سابقة، وتعيد صياغتها من جديد. ٢- الشعر هو الكلام المجنون الذي يختصر كل العقل، والفوضى التي تختصر كل النظام. ٣- الشعر هو ذلك الانقلاب الحضاري الناجح الذي تقوم به البشرية ضد نفسها، دون عنف ودون إراقة دماء. ٤- الشعر هو ذلك الفن الخارج على القانون ويعكس قمة العدالة...»[٣٩]. ونزار من القائلين إن المستقبل هو لقصيدة النثر[٤٠].

وممن عالج موضوع تعريف الشعر الشاعر والناقد أدونيس، فقد عرّف الشعر الحديث في كتاب (زمن الشعر) بقوله: «لعل خير ما نعرّف به الشعر الجديد هو أنه رؤيا، والرؤيا بطبيعتها قفزة خارج المفهومات السائدة. هي إذن تغيير في نظام الأشياء وفي نظام النظر إليها. هكذا يبدو الشعر الجديد، أول ما يبدو، تمرّدًا على الأشكال والطرق الشعرية القديمة»[٤١]. ويقول في موضع آخر من كتابه، جوابًا عن سؤال: «كيف تنظر إلى الشعر؟ إن كنت تقصد تحديد ماهية الشعر، فسؤالك لا يُجاب عنه، ذلك أن الجواب: كل جوابٍ يستند إلى قواعد ومقاييس، والشعر خرق مستمر

(٣٩) ما هو الشعر ص٣٣.

(٤٠) الكتاب ص١١٥.

(٤١) زمن الشعر ص٩.

للقواعد والمقاييس»[٤٢]. وأدونيس هو أيضًا من مؤيّدي قصيدة النثر، وهو يأخذ على رافضي حركة الشعر الحديث في البلاد العربية نقص التعريف بهذا الشعر، وبسط ماهيته ومفاهيمه والزوايا التي من خلالها يرى العالم والإنسان والتعبير[٤٣].

فكذلك ترى أن النقّاد والشعراء العرب لم يعرّفوا ماهية الشعر تعريفًا دقيقًا شاملاً وإنما أقامه بعضهم على الطبع، وهو قريب من تعريف الماهية، وأضاف بعض آخر إلى الطبع الصنعة.

* * *

فإذا انتقلنا إلى النقّاد والباحثين من غير العرب نجد أن أقدم من تحدَّث عن الشعر هو الفيلسوف الإغريقي أرسطو في كتابه (الشعر) أو فن الشعر، فهو يعرّف الشعر بأنه **محاكاة**، وغايته **التطهير**، على أن أرسطو لم يتحدث في كتابه هذا إلا عن المأساة (تراجيدي) فقد وصلنا كتابه ناقصًا والقسم المفقود يتحدث فيه عن الملهاة (كوميدي). وحديث أرسطو لا يتناول الشعر عامة، وإنما يتناول الشعر التمثيلي المسرحي الذي كان شائعًا في بلاده يومئذ. وكان لهذا الكتاب أثره القوي في النقّاد الغربيين وفلاسفتهم وشعرائهم، وكان له أثره في الفلاسفة العرب وخاصة في ابن رشد، وابن سينا، والفارابي.

وقد لخّص ابن رشد كتاب أرسطو بعد أن ترجم من السريانية إلى العربية، وقرر في حديثه عن الشعر أن الأقاويل الشعرية هي الأقاويل المتخيّلة، وشرح نظرية المحاكاة التي جاء بها أرسطو. أما الفارابي فلخص أفكار أرسطو في

---

(٤٢) زمن الشعر ص٣١٢.

(٤٣) مقدمة كتاب زمن الشعر.

رسالته «قوانين صناعة الشعراء» ولابن سينا كتاب مستمد من آراء أرسطو عنوانه (فن الشعر)، والشعر عنده هو «كلام مخيَّل مؤلَّف من أقوال موزونة متساوية، وهي مقفَاة عند العرب».

وقد تحدث عن الشعر من فلاسفة الغرب: كانت وهيغل، ومن النقَّاد والشعراء عدد كبير لا يتسع هذا البحث لعرض أنظارهم، ومنهم الكلاسِّيُّون والرومانسيون والسرياليون والرمزيون والاشتراكيون والواقعيون وغيرهم.

ولبعض أدباء الغرب تعريفات للشعر توضح وصف الشعر ولا توضح ماهيته، يقول الرسام ليوناردو دافنشي: «الشعر هو صورة يُشعَر بها ولا تُرى. ويقول ج. مور: «تعريفي للشعر الخالص أنه شيء اخترعه الشاعر خارج عن شخصيته» ويقول ووردز ورث: «الشعر هو فيض عفوي للمشاعر القوية منشؤه في الانفعال الذي نشعر به في السكينة» ويقول شلّي: «الشاعر، جالسًا في الظلام، هو عندليب يغني ليبعث ألحانًا جميلة لشعوره الذاتي بالوحدة».

* * *

بعد هذا العرض لما قيل قديمًا وحديثًا في تعريف الشعر نتساءل: هل وجدنا بينها تعريفًا شاملاً شافيًا لماهية الشعر؟ الجواب بالنفي، وكأن الشعر غير قابل للتعريف، وإنما يسعنا أن نعرّف الشعر بجمع كل مقوماته.

ثمة ذكر في بعض التعريفات لكلمة (طبع). وهذ ما نريد أن نتحدث عنه حديثًا مفصّلاً. والسؤال: لماذا لا نجد هذا (الطبع) في جميع الناس؟ والجواب: لأن الشعر **موهبة فطرية** أتيحت لفئة من الناس دون غيرها. فليس الشعر علمًا يتعلمه الناس فيصبحون شعراء. وهذه الموهبة هي جزء من كيان الشاعر،

وإحدى مورّثاته (جيناته). فمن لم تكن هذه المورثة (الجينة) مخلوقة فيه لا يمكنه أن يكون شاعرًا، فلكي يكون المرء شاعرًا ينبغي أن يُخلق شاعرًا وهذا الأمر يفسّر لنا ظواهر كثيرة، ومنها المنزلة الرفيعة التي يحتلّها الشاعر في مجتمعه، ومنها اعتقاد بعض الناس أن لكل شاعر شيطانًا يُلهمه قول الشعر، ومن الشعراء من زعم أن شيطانه يلهمه قول الشعر، بل لقد أطلق بعض الشعراء أسماء على شياطينهم. وقد تحدَّث أبو العلاء المعرّي عن شياطين الشعراء في إحدى رسائله(٤٤)، وجاء فيها قوله: «فقد علم أنه مشهور عند العرب أن لكل شاعر شيطانًا يقول الشعر على لسانه» فقد أطلق الأعشى على شيطانه اسم (مِسحَل) فقال:

دعوتُ خليلي (مسحلاً) ودعوا له جِهنّام بُعدًا للغويّ المذمَّم

وشيطان ابن دريد اسمه (أبو زاجية)(٤٥). وبالغ بعضهم فجعل شيطانه ذكرًا وشيطان غيره أنثى، فقد ذكروا أن العجّاج الراجز قدم المربد فأنشد الناس أرجوزته التي مطلعها:

قد جَبَرَ الدِّينَ الإلهُ فَجَبَرْ

فلما أُخبر أبو النجم بأمره قدم المربد فأنشد أرجوزته التي مطلعها:

تذكَّرَ القلبُ وجَهلاً ما ذَكَرْ

ومنها قوله:

إني وكلُّ شاعرٍ من البَشَرْ

(٤٤) انظر: رسالة الشياطين المنشورة مع رسالة الغفران بتحقيق كامل كيلاني ص٤٧٨.

(٤٥) الرسالة نفسها ص٤٨٠.

شيطانه أنثى وشيطاني ذَكَرْ

فادّعاء الشعراء أن لهم شياطين تُلهمهم قول الشعر إنما يفسّر بالموهبة الشعرية التي تولد مع الشاعر، وأبو العلاء يُشير في رسالة الشياطين إلى أن الشعراء القدامى كانوا يقولون الشعر بغريزة وطبع[٤٦].

ولهذا نرى أن كثيرًا من الأدباء برعوا في كتابة البحوث والمقالات وتأليف الكتب الأدبية ولم يكونوا شعراء. فمن أدبائنا القدامى نجد الجاحظ مثلاً يُؤلف الكتب الكثيرة ولا يقول الشعر، ومثله الأديب الفذ أبو حيَّان التوحيدي، وغيرهما كثير. ومن أدبائنا المحدثين نذكر الأديب العظيم طه حسين، كان أديبًا ومؤرِّخًا ولم يكن شاعرًا، ومثله العالم الجليل أحمد أمين. ومن اجتمعت فيهم البراعة الأدبية والموهبة الشعرية كانوا قلة، ومنهم على سبيل المثال الكاتب العظيم عباس محمود العقاد، كان أديبًا لامعًا ومؤرِّخًا وشاعرًا مجيدًا.

ولأن الشعر وليد الموهبة الفطرية نجد شعراء قالوا الشعر وهم في مقتبل حياتهم، من هؤلاء مثلاً الشاعر لبيد بن ربيعة الذي دخل وهو في سن الصبا، على النعمان بن المنذر وارتجل رجزًا في هجاء الربيع بن زياد العبسي.

والشعر على ذلك، من الفنون الجميلة، وهذه الفنون يختلف بعضها عن بعض باختلاف أدائها، فالشعر أداته الألفاظ، والموسيقا أداتها الألحان والأصوات، والرسم أداته الخطوط والألوان. وهذه الفنون كلها وليدة الموهبة، هذه الحقيقة تفسِّر لنا مثلاً نبوغ الموسيقي الألماني العظيم جان سيبستيان باخ

---

(٤٦) رسالة الشياطين ص٤٨١.

Bach، فقد نبغ في التأليف الموسيقي منذ حداثة سنه، ومثله الموسيقي النمسوي النابغة موزار Mozart، وصدور الشعر وسائر الفنون عن الموهبة يفسِّر لنا أمرًا آخر هو ظهور الموهبة الشعرية في أسرة كاملة، يتوارث أبناؤها الموهبة الشعر واحدًا بعد واحد. من هذه الأسر مثلاً أسرة زهير بن أبي سلمى، كان ابنه كعب شاعرًا، وكان ابن كعب عقبة شاعرًا، وابن عقبة العوّام كان شاعرًا. ومن الأسر الشعرية أيضًا أسرة جرير بن عطية الشاعر. فالموهبة الشعرية قد تكون وراثية، وكذلك الموهبة الفنية، وقد كان للموسيقي باخ ثلاثة أولاد كلهم كانوا يجيدون التأليف الموسيقي.

ولكن هل تكفي الموهبة الشعرية وحدها ليكون صاحبها شاعرًا؟ الجواب بالنفي، فإلى جانب الموهبة الشعرية ثمة أمور يُشترط توفرها في صاحب الموهبة ليكون شاعرًا.

أول هذه الشروط إتقان اللغة التي يتكلمها قوم الشاعر، فالشعر عماده الألفاظ فإذا اجتمعت اللغة والموهبة الشعرية في شخص أتيح له أن يكون شاعرًا، ولكن الموهبة واللغة لا تكفيان وحدهما لإجادة الشعر، فلابد للشاعر إذا أراد إجادة شعره من أن يقف على قواعد الشعر السائدة في عصره، كالعروض والقافية في الشعر العربي الكلاسِّي، ولابد له أيضًا من أن يحفظ كمًّا وافرًا من مأثور الشعر ليكتسب الملكة ويجلو الموهبة. فكما أن الصائغ يجلو المعدن ليظهر بريقه ولمعانه، فكذلك الشاعر إذا أراد أن يجيد قول الشعر عليه أن يحفظ كثيرًا مما قاله السابقون من الشعراء.

إن اقتران الموهبة باللغة يفسِّر لنا ظهور شعراء قالوا الشعر بالعربية مع أنهم

أعاجم. ذلك أنهم عاشوا مع العرب وأتقنوا لغتهم. ففي العصر الأموي وُجد شاعر مجيد هو نُصيب، كان لأبوين نوبيين، وكان مدَّاحًا لبني أمية، شهد له الأصمعي بجودة الشعر(٤٧). وشاعر آخر هو أبو عطاء السِّندي، وكان شاعرًا مجيدًا ولكن كانت فيه لكنة ولثغة بسبب جنسه السندي(٤٨). وشاعر ثالث هو إسماعيل بن يسار، الفارسي الأصل(٤٩).

فلما أطلّ العصر العباسي ظهر عدد وَفْرٌ من الشعراء الفرس الذين أجادوا قول الشعر العربي، ونالوا شهرة بعيدة. من مشهوريهم بشار بن برد، وأبو نُواس، وشاعر من أصل رومي هو ابن الرومي علي بن العبّاس بن جريج.

وربما تخلّت الموهبة الشعرية عن صاحبها في بعض الأحيان، فقد رُوي عن الفرزدق قوله: «قد علم الناس أني فحل الشعراء، وربما أتت عليّ الساعة لقلع ضرس من أضراسي أهون عليّ من قول بيت من الشعر»(٥٠). ورُوي نحو ذلك عن نُصيب الشاعر، فقد سُئل مرّة: أتطلب القريض فيعسر عليك؟ فقال: «إي والله، لربما فعلت، فآمر براحلتي، فيُشدّ بها رحلي، ثم أسير في الشعاب الخالية، وأقف في الرّباع المقوية، فيطربني ذلك ويفتح لي الشعر»(٥١).

نستخلص من كل ما تقدّم أن حدّ الشعر يقوم على أمرين: الموهبة ثم اللغة،

---

(٤٧) انظر ترجمته في الجزء الأول من الأغاني.

(٤٨) انظر ترجمته في الجزء ١٦ من كتاب الأغاني.

(٤٩) ترجمته في الجزء الرابع من كتاب الأغاني.

(٥٠) الأغاني الجزء ٢١.

(٥١) الأغاني ١/٣٦٧.

وتُضاف إليها شروط لإجادة الشعر، منها: حفظ قصائد من الشعر، ومعرفة قواعده العروضية والنحوية والصرفية. وكان الشعر الكلاسيّ في تاريخ أدبنا مقَيّدًا بأمرين هما: الوزن والقافية. وقد تخلّى عن هذين الشرطين كثرة الشعراء المعاصرين، فظهر أولاً الشعر الحر، أو شعر التفعيلة، ثم ظهرت قصيدة النثر.

وعقب ظهور قصيدة النثر كثر عدد الشعراء العرب كثرة هائلة، وذلك لعدم التزام الشعراء الوزن والقافية، فأصبح الشعر منثورًا. وأتاح هذا الأمر لمن لا يملكون الموهبة الشعرية أن يقولوا كلامًا غثًّا وهراءً لا معنى له يسمونه شعرًا، تقرؤه فلا تدرك له أي معنى، فهو خالٍ من الدلالة المعنوية ومن الصور المبتكرة.

نحن لا ننكر أن ثمة شعراء مجيدين قالوا قصيدة النثر وأجادوا فيها، ولكن عدد هؤلاء لا يتجاوز أصابع الكف، وسائر من يقولون قصيدة النثر خالون من أي موهبة شعرية، وإنما يجيدون الشَّعْبَذَة الشعرية.

والموهبة الشعرية تقوم على دعامتين: الأداء اللغوي والخيال، فالشاعر ذو الموهبة يقتنص الألفاظ التي يعبِّر بها عن أفكاره وشعوره، ويمدّه خياله المبدع بالصور والأخيلة فشعره يؤثِّر في القارئ بألفاظه وصوره، والشعر تعبير وتصوير وإيقاع، فإذا خلا الشعر من هذه الشروط كان نظمًا لا شعرًا، كألفيَّة ابن مالك مثلاً.